المقدمة

إنه لمن اليسير جداً الآن الذهاب إلى الرياض- عاصمة المملكة العربية السعودية .. فلك أن تصلها جواً، أو بالسيارة من جدة على ساحل البحر الأحمر، أو من الظهران على الخليج العربي، فهي تبعد عن جدة -٥٥٠ ميلاً- وعن الظهران - ٢٥٠ ميلاً، والطريق من كليهما طريق صحراوي، يمر عبر تلال رملية متحركة، وسهول ذات حصى، وجبال عارية، وقليل من الواحات.

فالصحراء هي الصحراء لم تتغير منذ العهود القديمة، اللهم إلا شيئاً ما على طول الطرق الضيقة، وأهل الصحراء هم أهلها أنفسهم لم يتغيروا كذلك، اللهم إلا أنهم أكثر مسالمةً الآن.. فإذا ما أوقف المسافر سيارته وسار مسافةً قصيرةً في الصحراء، فإنه سيستشعر الفضاء، والفراغ، والسكون، المخيم حوله، والريح التي لا رائحة فيها، ثم الحرَّ القائظ أثناء اليوم... ولمعان النجوم الرائع ليلاً ، وكل تلك سمات أثرت، وستظل تؤثر على سكان الصحراء، ما كان هناك سكان... وهي نفسها ذات السمات وذات الخصائص التي كانت وراء انبثاق بعض الديانات التي شهدتها الصحراء.

وعلى الرغم من أن الصحراء باقية لا تتغير أبداً، فإن الرياض -عاصمتها- قد تغيرت تماماً، فهي مدينة مزدهرة، متغيرة، متطورة دوماً، على الرغم من وجود بعض بقايا في وسطها من المدينة (الرياض)

القديمة ذات المباني الطينية العتيقة- والتي كانت قبل عشر سنوات هي الرياض ... وخارج أسوارها المتداعية تقع مدينة الرياض الحديثة، بمبانيها الخراسانية المسلحة. والتي يسكنها عدد من الأثرياء- أصحاب الملايين.. وهي على الرغم من مظهرها الحديث، مدينة عربية إسلامية خالصة، فيها بضع مئات من الأجانب- غير العرب - الوافدين من بلدان أخرى وأولئك الأجانب مسافرون عابرون همهم بيع شيء ما، وقد يكون ذلك إما بيع طائرات، أو حتى بيع أدوات التجميل، أو ربما عرض وبيع خدماتهم بوصفهم خبراء أجانب.

يتوقف كل شيء في الرياض- ما عدا حركة المرور- خمس مرات يومياً، وذلك لأداء الصلاة، ونساء الرياض لا يخرجن إلى الطرقات إلا نادراً، وإذا ما خرجن فهن دائماً في حجابهن، وعلى الرغم من أنه قد يكون للرجال أكثر من زوجة، فإنهم لا يتحدثون - خارج نطاق العائلة- عن زوجاتهم أبداً. ووسائل الترفيه على الطريقة الغربية، كالرقص، واحتساء الخمور، ممنوعة تماماً، كما أنه لاتوجد دور للسينما، ومسارح في الرياض.. والشريعة الإسلامية هي القانون الساري في البلاد.. ومدينة الرياض هي باختصار ملتقى لتقنيات الغرب المادية، وللمثل الأخلاقية الشرقية، بل هي ربما أكثر من نقطة لقاء بينهما، فهي مكان لتصادمهما، تصادماً قد يكون مباشراً.

والسبب الجذري لاحتمال حدوث هذا التصادم هو اكتشاف النفط في الأجزاء الشرقية من صحارى المملكة العربية السعودية في عام

(١) الصحيح أن اكتشاف النفط كان بعد ذلك، أي في سنة ١٩٣٨م، الموافق ١٣٥٧هـ، إلا أن إرهاصات التنقيب عنه كانت قبل ذلك التاريخ الذي أشار إليه المؤلف.

١٩٣٦م[١]، وتطويره عن طريق شركة أمريكية في الفترة التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية، وحتى ذلك الحين كانت المملكة، وكان حاكمها، وسكانها فقراء، لا يملكون سوى صحراء حجمها ثلث[١] حجم الولايات المتحدة الأمريكية، تعليمهم لا يتعدى سوى أن يحفظ العلماء القرآن الكريم عن ظهر قلب، ويعون تاريخ الإسلام وعياً تاماً، ولاشيء غير ذلك، ولكنهم من الناحية الروحية أناس ذوو كرامة، وتدين وشرف.

هذه المملكة الصحراوية أنشأها رجل واحد، وبمجهود فردي، يعرفه العالم الغربي باسم (ابن سعود)، وقد نشأ أميراً فقيراً ، في بيئة صحراوية تتقاسمها المشكلات، والمنازعات القبلية، لا تعرف القانون... ولكنه استطاع في ظرف اثنين وعشرين عاماً أن يوحد قبائلها المتصارعة المتنافرة تلك بفضل قدراته، ومواهبه كمقاتل جسور، وبفضل قوة وجاذبية شخصيته، كما استطاع أيضاً - ولحوالي عشرين عاماً- أن يبسط حكمه على تلك الأصقاع الفقيرة- ولكن سرعان ما تحول فقرها ذاك غنى، إذ إن السنوات العشر الأخيرة من حكمه شهدت تفجر الثروات في بلاده - فأصبح ربما أغنى رجل في العالم[٢]، هذا إذا استثنينا جاره شيخ الكويت، الذي لا تزيد مساحة إمارته عن سبعين ميلاً مربعاً فقط... والواقع أن ابن سعود لم يكن مفتوناً أوحريصاً على هذا الثراء، إدراكاً منه لآثاره السلبية التي قد يمتد أثرها إلى مُثُل رعيته الدينية، وهي مُثل أقام عليها أساس مملكته، وحرص على استمرارها حية قوية حرصاً شديداً.

(١) الصحيح أن حجم المملكة يعادل خمس مساحة الولايات المتحدة.

(٢) هذه مبالغة من الكاتب، ولعل المطلع على ماورثه الملك عبدالعزيز من مال يدرك حجم هذه المبالغة من المؤلف.

وليست هناك ثمة مقارنة - من حيث الثراء والأبهة- بين ابن سعود، وبين النبي الملك سليمان عليه السلام- كما فعل بعض الكتاب- فتلك مقارنة لن تعجب الملك عبد العزيز بحال من الأحوال، فهو رجل عاش حياة بسيطة، وكريمة رغم الثراء.. وإن كانت لشخصيته، ولإنجازاته مسحةً من العهود القديمة، فقد عاش حياته، وقام بفتوحاته كلها، في قرننا العشرين هذا.. بدأت تلك الفتوحات في عام ١٩٠١م[١].

(١) الصحيح أن ذلك كان في مطلع عام ١٩٠٢م.